بنية المكان في السرد الرحلي رحلة ابن جبير أنموذجًا

د.علي عبد النبي إبراهيم فرحان
alifa2222@gmail.com ahasan@ahlia.edu.bh
الجامعة الأهليّة – مملكة البحرين

الملخّص

تقوم الممارسة النصيّة حين تستحضر المكان على تكوين صور ذهنية وتخييلية غابت عن البعد الحسي للمكان، وتعيد تشكيله في أبعاد تتعلّق بتبئير المبدع لصورة المكان الحسية في بنية إبداعية.

" لذا يعدّ تفاعل الأمكنة في مستواها المتخيّل مكوّنًا أساسيًا من مكونات الممارسة النصّيّة برؤاها الفنّية ومعطياتها الجمالية، وما لها من امتدادات دلالية؛ إذ يقتضي استكناه هذا التفاعل في سياق توظيفه النصّي مراعاة التداخل بين بعديه الواقعي والمتخيّل في دلالة على حركيته، وبخاصة إذا ما تعلّق الأمر بنوع خاصٍ من الكتابة ممثلة في أدب الرحلة التي تعدّ في تعريفٍ من تعاريفها ضربًا من السيرة الذّاتية." (بركة،، 2015)

وتعدّ مدونات أدب الرحلة في التراث العربي القديم إحدى المدونات المشكلة في التجنيس؛ ففي حين رآها بعض من نظر إليها مجرد توثيقات جغرافية لمشاهدات شخصية، رآها آخرون أنها مدونات " ذات معطيات اجتماعية وسياسية حول فترة معينة" (حليفي، 2006م)

وقد خلط بعضهم فلم يفرق بين الرحلة والرسالة والتقييد والتأليف والمذكرة والتصنيف (حليفي، 2006م)

ورغم اختلاف المقاربات لمدونات الرحالة العرب – وهي قليلة – إلا أنّها لم تسبر – إلا ما ندر – بنيتها السّردية، وهي بنية واضحة البروز في تلك النّصوص سواء أكانت مقصودة لذاتها أم غير ذلك.

ورغم انفتاح النص الرحلي على نصوص محايثة في المدونات العربية إلا أنّه يبقى لهذا النّصّ بنيته الخاصة التي تميزه عن سواه من المدونات العربية وتعطيه سمته المميزة.

وفي النصّ الرحلي يعمد الرحالة إلى محاولة إدراك الواقع من وجهة نظره أي من خلال إدراكه للعالم الخارجي لا كما هو في الخارج بل كما تراه عينه هو كونه أديبًا ساردًا إلى جانب كونه رحالة، كما يحاول – في الوقت ذاته – أنْ يبني تصوّرًا منسجمًا حول العالم؛ قادرًا على تفسير الظواهر الطبيعية وغير الطبيعية التي يشاهدها في رحلته الواقعية والتي يسردها – غالبًا – فيما بعد في مدونته التي لا تكون بريئة البتة من التخييل؛ حالها كحال أيّ عمل إبداعي وأدبي.

اشتغل النّصّ الرّحلي على المزاوجة بين الوظيفة الجغرافية والوظيفة الأدبية؛ فلم يكن حضور الجغرافي منفصلا عن حضور الأدبي؛ فالمكان ببنيته الجغرافية يحيل عمل الرحالة إلى دارس للجغرافيا؛ لكنّه كي لا يغرق الأديب الرحالة في الجغرافيا يعمد إلى عمله الأدبي فيندغم عنده الجغرافي بالأدبي سردًا ووصفًا؛ بل لا يخلو الأمر في أحايين كثيرة من مقاربة المسمى الجغرافي بإيحاءات محمولات المعنى الذي يحمله الاسم، ولا أدلّ على ذلك في رحلة ابن جبير من وصفه حرّان ورأس العين.

نحاول في هذه الورقة البحثية أنْ نكشف عن بنية المكان في النص الرحلي من خلال سرد ابن جبير في رحلته الشهيرة، وأدبية هذا التمثّل المكاني سرديًا، والتعالقات الوظيفية بينما هو جغرافي وبين ما هو أدبي.

الكلمات المفتاحية:بنية المكان – السرد الرحلي – إدراك الواقع– المتخيّل – الوظيفة الجغرافية – الوظيفة الأدبية.

The structure of place in travel narratives Ibn Jubayr's journey as an example

Dr. Ali Abdul Nabi Ibrahim Farhan
National University - Kingdom of Bahrain

Abstract

When textual practice evokes a place, it is based on creating mental and imaginative images that are absent from the sensory dimension of the place, and reshaping it in dimensions related to the creator’s focus of the sensory image of the place in a creative structure.

"Therefore, the interaction of places at their imagined level is considered an essential component of textual practice with its artistic visions, aesthetic data, and semantic extensions. Conceiving this interaction in the context of its textual employment requires taking into account the overlap between its real and imagined dimensions in reference to its movement, especially when it comes to the matter. "With a special type of writing represented in travel literature, which by definition is considered a kind of autobiography."

The blogs of travel literature in the ancient Arab heritage are one of the blogs that are problematic in naturalization. While some saw them as mere geographical documentation of personal observations, others saw them as blogs "with social and political data about a specific period."

Some of them were confused and did not differentiate between the journey, the message, the restriction, the composition, the memorandum, and the classification

Despite the different approaches to the blogs of Arab travelers - and they are few - they did not explore - except what is rare - their narrative structure, which is a clearly prominent structure in these texts, whether it was intended for its own sake or otherwise.

Despite the openness of the nomadic text to immanent texts in Arabic blogs, this text retains its own structure that distinguishes it from other Arabic blogs and gives it its distinctive character.

In the travelogue text, the traveler tries to perceive reality from his point of view, that is, through his perception of the external world, not as it is on the outside, but as it sees it with his own eyes, as he is a writer and storyteller in addition to being a traveler. He also tries - at the same time - to build a harmonious perception of the world. He is able to explain the natural and unnatural phenomena that he sees on his real journey and which he often recounts later in his blog, which is not at all free from imagination. Just like any creative and literary work.

The travel text worked on combining the geographical function with the literary function. The presence of the geographer was not separate from the presence of the literary; The place, with its geographical structure, turns the work of the traveler into a student of geography. However, in order for the traveling writer not to become immersed in geography, he resorts to his literary work, and in his view the geography merges with the literary in narrative and description. Indeed, in many cases, the matter is not devoid of approaching the geographical name with suggestions of the predicates of the meaning that the name carries, and there is no clearer evidence of this in Ibn Jubayr's journey than his description of Harran and Ras al-Ain.

In this research paper, we attempt to reveal the structure of place in the travel text through the narration of Ibn Jubayr on his famous journey, the literary nature of this spatial representation narratively, and the functional relationships while it is geographical and what is literary.

Keywords: structure of place - travel narrative - perception of reality - imagined - geographical function - literary function.

مقدّمة:

تعمل الكتابة الإبداعية في جزء كبير منها على تشكيل بنية الأشياء مرتبطة بوعي المبدع وقدرته على استحضار الواقع في بوتقة التخييل التي تحيله إلى واقع آخر هو الواقع المنتج من الكتابة.

وتقوم الممارسة النصيّة حين تستحضر المكان على تكوين صور ذهنية وتخييلية غابت عن البعد الحسي للمكان وتعيد تشكيله في أبعاد تتعلّق بتبئير المبدع لصورة المكان الحسية في بنية إبداعية.

" لذا يعدّ تفاعل الأمكنة في مستواها المتخيّل مكوّنًا أساسيًا من مكونات الممارسة النصّيّة برؤاها الفنّية ومعطياتها الجمالية، وما لها من امتدادات دلالية؛ إذ يقتضي استكناه هذا التفاعل في سياق توظيفه النصّي مراعاة التداخل بين بعديه الواقعي والمتخيّل في دلالة على حركيته، وبخاصة إذا ما تعلّق الأمر بنوع خاصٍّ من الكتابة ممثلة في أدب الرحلة التي تعدّ في تعريفٍ من تعاريفها ضربًا من السيرة الذّاتية.

يقوم راوي الرحلة بمهمتين : الأولى تتقاطع مع مهمة الجغرافي، الذي يعنى بتدون الحقائق الجغرافية المتعلقة بالبلدان والسكان وتوثيقها، والثانية تنحاز إلى صفة الأديب الّذي يعيد ترتيب الأحداث (والأوصاف) وينظمها وفق رؤيته ومنهجه." (بطوطة، 1322هـ)

اشتغل النّصّ الرّحلي على المزاوجة بين الوظيفة الجغرافية والوظيفة الأدبية؛ فلم يكن حضور الجغرافي منفصلا عن حضور الأدبي؛ فالمكان ببنيته الجغرافية يحيل عمل الرحالة إلى دارس للجغرافيا؛ لكنّه كي لا يغرق الأديب الرحالة في الجغرافيا يعمد إلى

عمله الأدبي فيندغم عنده الجغرافي بالأدبي سردًا ووصفًا؛ بل لا يخلو الأمر في أحايين كثيرة من مقاربة المسمى الجغرافي بإيحاءات محمولات المعنى الذي يحمله الاسم، ولا أدلّ على ذلك في رحلة ابن جبير من وصفه حرّان ورأس العين. (أسماء، 1991م)

إنّ النّصّ المكاني هو من أخطر القضايا، إنّه يخلق الذّكرى، ويكون الرؤيا والموقف:

الجغرافيا ليست مكانًا يوصف وحسب؛ بل إنّه يرفد الأديب بما يحكي وبما يحمل من خيالات وآلام وآمال.

المشهد التعبيري الذي تألقت به مخيلة ابن جبير من خلال رسم التوصيف بأدق تفاصيله أصبح النقطة الفاصلة في ثيمة النّصّ أو بمعنى أصح نقطة التحول بين جنسين أولهما جغرافي يصف الأشياء، وثانيهما أدبي يحيل إلى ذاكرة الأديب وثقافته وموقفه.

إنّ الكشف الذي يقوم به ابن جبير عن طبيعة المكان إنّما يحيل إلى حالة الاستمتاع الأدبي الذي ينحو كاتب الرحلة خلقه بجمال لذّة الأدب على حساب معلومة الجغرافيا.

وهنا تبرز ذاتية الأديب على حساب حيادية الجغرافي؛ الأديب يقع في الجمال فينحاز إلى ذاته، ويعبّر عن رؤيته وأحاسيسه، يستحضر ماضيه وخبراته ومواقفه وحاضره وما يستشرفه من مستقبل، والجغرافي عليه أنْ يكون محايدًا، يشاهد فيقيّد؛ يصف البلاد والعباد بموضوعية ودون إسقاطات.

السّرد وتبئير المكان:

إنّ من وظائف الرحالة في حالة السّرد – أي حينما يتلبّس عباءة المبدع – أنْ يعمدُ إلى تبئير المكان بصورة مهيمنة، فيجعل من المكان حافزًا على انفتاح النّصّ الرحلي إلى آفاق من التخييل كبيرة، ودافعًا إلى تعميق المتخيّل؛ وفتح المخيلة لبناء هندسة سردية للمكان في عالم النّصّ تختلف عنه في عالم الواقع الخارجي، وتهدف إلى تشييد العوالم السّردية فيه.

وطالما كان السفر في السرد العربي – بخاصة – محفّزًا للسّرد؛ السفر مرادف للانتقال إلى مكان جديد؛ المكان الجديد قرين المجهول؛ والكشف عن ذلك المجهول يحتاج إلى سارد قدير يحافظ على عنصر الغرابة والدهشة التي تكسب السّرد صفة التشويق.

وظيفة السارد الرحالة لا تنتهي عند حدود الرحلة جغرافيًا، بل إنّها تبدأ من حيث تنتهي الرحلة الفيزيائية لتبدأ الرحلة الأدبية (نصًا مدّونًا) يتسلّح بكلّ ممكنات النّصّ الأدبي بصفة عامّة والنّصّ السردي بصفة خاصّة.

إذن حضور المكان في النص المسرود ليس شرطًا أن يكون انعكاسًا لواقع المكان الفيزيائي بل هو ليس هو حتمًا وإن كان محيلا عليه.

وعمل الرحالة في النص الإبداعي يختلف عن عمله في الرحلة الفيزيائية.

ثمة خيط فاصل بين الأمرين؛ والتدوين سواء أكان تثبيتًا للرحلة عبر المشافهة والنقل أو استعادة لها بعد انقضائها أو محايثًا لها وقت حدوثها، فهو حتمًا نصٌّ تنطبق عليه معايير النصّية من جهة شكلية ودلالية ونفعية. كما تنطبق عليه معايير السّرد والوصف من جهة أخرى.

تقوم الرحلة على عامل السّفر المتعدد في الزمان والمكان؛ هذا العامل يستدعي عنصره الأساس في الرحلة وهو الانتقال من مكان إلى آخر ضمن فضاء الزمان وإطار الهدف من الرحلة.

يصبح المكان مرجعًا مذوّتًا حين يتم تناوله في سرود مباشرة من خلال مشاهدات الراوي، أثناء الانتقال والتوقّف في زمن الرحلة، وتتراوح هذه العلاقة بين مرجع ذاتي أثناء الحديث عن مكان الأنا والانطلاق والأمكنة المقدّسة، وبين مرجع غيري ويتعلّق بالأمكنة التي يعبرها الراوي وتكون أجنبية عن ذاته لأنّها أمكنة الآخر.

وهو لبّ الفعل الذي قام به ابن جبير في رحلته الشهيرة.

وتقوم بنية المكان في الرحلة عمومًا وفي رحلة ابن جبير على خريطة من الأمكنة المتنوعة؛ يمكننا أنْ نقسّمها إلى ثلاثة أقسام:

مكان الانطلاق (المكان الوطن):

وهو يمثل حركة البداية التي ترتبط بحافز التحرّك للانتقال والسفر والارتحال؛ وعادة ما يكون موطن الراوي؛ ولا يكون هذا المكان – في السرد العربي القديم – مكانًا مهمّشًا، بل هو مكان أثير مهم له شهرته وفعله في حاضر الناس وحضارتهم، في رحلة ابن جبير غرناطة بداية الانطلاق، ويحدّثنا التاريخ عن أديب من غرناطة – هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير – كان كاتم سرّ ملك

الموحدين أبي سعيد بن عبد المؤمن أمير غرناطة، وقد استدعاه ذات يوم ليكتب له كتابا وهو على شرابه، " فمد يده إليه بقدح من نبيذٍ، فاعتذر ابن جبير وأبى واسترجع، فأقسم عليه الأمير مغلظا ليشرب منها سبعًا، فشربها صاغرًا، ثمّ ردها عليه أبو سعيد سبع أقداح من الدنانير. لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيرا عن خطيئته، وأقام في سفره سنتين ودوّن مشاهداته وملاحظاته"

أمكنة العبور:

أمكنة العبور: وهي الأمكنة التي يعبر بها ومن خلالها الراوي إلى المكان الغاية وإلى المكان الوطن؛ و" هو فضاء السير والعبور والمواجهة مع الآخر؛ لأنّه بداية السفر خارج مكان الألفة."

وتمثّل كثرة الأمكنة في طريق العبور ثراءً للنص الرحلي.

ففي رحلة ابن جبير خرج ابن جبير مع صديقه أحمد بن حسان من غرناطه وقصد الإسكندرية ثمّ القاهرة، ثمّ إلى قوص وصعيد مصر، ثمّ فصل إلى عيذاب، ومنها عبر البحر الأحمر إلى جدة، ومن جدة إلى مكة (الغاية) حيث أدى مناسك الحج، فأقام فيها ستة أشهر قمرية، ثمّ رحل إلى المدينة المنورة.

(هذا طريق الذهاب)، ثمّ بدأ العودة لا من حيث أتى، بل سلك إلى العراق؛ فمرّ بالقادسية، ثمّ نزل الكوفة، ثمّ الحلة، ثمّ المدائن ومن المدائن ألفى بغداد فأقام بها ثلاثة عشر يومًا، ثمّ توجّه إلى الموصل فأقام بها أربعة أيام، ثمّ رحل إلى نصيبين، ومنها إلى دارا ، فمادرين، فدنيسر، (حليفي د.، 2006) فرأعين (التي سميت بهذا الاسم لنبع نهر الخابور من عيون بقربها)، ثمّ وصل إلى حرّان، ومنها إلى سروج، وعبر ابن جبير الفرات عند سروج إلى قلعة نجم التي عرفت باسم جسر منبج، ثمّ إلى حلب عن طريق الرحبة ومنبج والبزاغة الباب، ثمّ ألفى دمشق فأقام فيها ما زاد عن الشهرين، بعد أن مرّ بقنسرين، وتل تاجر، وباقدين، وتمنى، والمعرة، وجبل لبنان، وحماة، والرستن، وحمص، ثمّ رحل إلى عكا ليركب البحر منها إلى بلاده، ثمّ علم أنّ مركبا إفرنجيا على وشك الإبحار من مدينة صور إلى بجاية بتونس، غير أنه استصغر المركب فرجع إلى عكا، ومنه خرج إلى مسينة بصقلية، ومن صقليّة اتّجه إلى الأندلس فوصل قرطاجنة يوم الخميس 15 محرم سنة 581هـ، ومنها إلى مرسية ثمّ برالة، ثمّ ورقة، ثمّ المنصورة، ثمّ قنالش، حتى وصل إلى منزله بغرناطة في 22 محرم سنة 581هـ. .إذنْ نحن أمام حركة دائرية بدأت بغرناطة وانتهت بها.

المكان الغاية:

وهو المحرّك الظاهر للرحلة والذي يعدّ الهدف الّذي يسعى الراوي الرحالة بلوغه ليخبرنا عنه ويسرد لنا منه وفيه مشاهداته ورؤاه ومواقفه وذاتيته التي تتشكّل من خلال السرد والوصف والتدوين. وهو " الّذي يحدد نوعية الرحلة ويشير إلى المكان الّذي انطلقت نحوه منذ خروجها." (الأندلسي)، د.ت)

كان المقصد والغاية الرئيسة لرحلة ابن جبير أن يصل إلى الديار المقدسة، (مكة المكرمة، والمدينة المنورة) ذات المشاعر الإيمانية والتاريخ الروحي الممتد إلى فترة بعيدة، ولتلك الديار المباركة قدسية متميزة في الذهنية الإسلامية عبر العصور والأزمان.

وكانت وقفته الأطول والأوفى عند وصفه المسجد الحرام وصفا دقيقا استقصائيا ضافيا في أكثر من ثمانين صفحة من كتابه ، فجاءت وثيقة أثرية ومدونة وافية للديار المقدسة وأحوالها في ذلك العصر . ومن فضائل البيت العتيق (باب الكعبة والملتزم) (محمد، 2013)

ابن جبير ووصف المكان:

السمات الرئيسة لأدب الرحلات أن يحسن الكاتب والأديب وصف الحدث والمكان وصفا واقعيا حيا ، يقدم صورته الخارجية كاملة، ويسعى لإظهار صورته الداخلية وما فيها من دلالات تثري البناء الفني للنص . لذا فإن للوصف عند ابن جبير أبعادا جمالية إذ لم يقتصر على الشكل الخارجي للمدن والمشاهد التي زارها وشاهدها فحسب .

بل نراه يتعمق في وصف ملامح شكلها الداخلي، فيصف سكانها ومعالمها وآثارها ومجالسها ومعتقداتها وتقاليدها، أضف إلى ذلك أنه يمتلك ملكة نقدية بارعة تدعوه إلى أن يحقق ويدقق في كل ما يشك فيه من معتقدات وعادات غريبة وشاذة.

ويلاحظ في وصف ابن جبير التوسع والإسهاب وإبراز الملامح الجمالية للمكان والمشاهد العمرانية ، كما هو الحال في وصف البيت الحرام والمسجد النبوي ، وأحيانا يميل إلى الاختصار والإيجاز ، مثل وصف الكعبة حيث يقول (فألفينا الكعبة الحرام عروسا

مجلوة مزفوفة) إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن . (وتتنوع أساليب تشكيل المكان في رحلة ابن جبير بتنوع وظائف الوصف المختلفة، كالوظيفة الزخرفية، والتفسيرية، والاستقصائية، وغيرها

الخاتمة

إنّ النّصّ المكاني هو من أخطر القضايا، إنّه يخلق الذّكرى، ويكون الرؤيا والموقف. الجغرافيا ليست مكانًا يوصف وحسب؛ بل إنّه يرفد الأديب بما يحكي وبما يحمل من خيالات وآلام وآمال.

المشهد التعبيري الذي تألقت به مخيلة ابن جبير من خلال رسم التوصيف بأدق تفاصيله ليصبح النقطة الفاصلة في ثيمة النّصّ أو بمعنى أصح نقطة التحول بين جنسين أولهما جغرافي يصف الأشياء، وثانيهما أدبي يحيل إلى ذاكرة الأديب وثقافته وموقفه.

إنّ الكشف الذي يقوم به ابن جبير عن طبيعة المكان إنّما يحيل إلى حالة الاستمتاع الأدبي الذي ينحو كاتب الرحلة خلقه بجمال لذّة الأدب على حساب معلومة الجغرافيا.

وهنا تبرز ذاتية الأديب على حساب حيادية الجغرافي؛ الأديب يقع في الجمال فينحاز إلى ذته، ويعبّر عن رؤيته وأحاسيسه، يستحضر ماضيه وخبراته ومواقفه وحاضره وما يستشرفه من مستقبل، والجغرافي عليه أنْ يكون محايدًا، يشاهد فيقيّد؛ يصف البلاد والعباد بموضوعية ودون إسقاطات.

المصادر والمراجع :

ابن بطوطة. (1322هـ). *رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*. ، المطبعة الخيرية، ط1، .

أبو بكر محمّد (أسماء. (1991م). *ابن بطوطة الرجل والرحلة*، .)،بيروت،: دار الكتب العلمية، ط1، .

بركة ، ناصر . (ديسمبر / كانون الأوّل, 2015). جمالية توظيف المكان في أدب الرحلة: في " مدينة الضباب ومدن أخرى ". *مجلة دراسات وأبحاث، المجلد 7، العدد 12، م، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر*.

البلنسي، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي . (د.ت). *رحلة ابن جبير، ضبطه ووضع فهارسه: دكتور محمد زينهم محمد عزب*،. لقاهرة: دار المعارف.

حسن، زكي محمد. (2013). ، *الرحالة المسلمون في العصور الوسطى*،، . القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

حليفي، شعيب. (2006). ، *الرحلة في الأدب العربي*. القاهرة ، ط1: رؤية للنشر والتوزيع.

Sources and references:

Ibn Battuta. (1322 AH). The Journey of Ibn Battuta, called “The Masterpiece of Landscapes and the Wonders of Travels.” Charity Press, 1st edition.

Abu Bakr Muhammad (Asmaa. (1991 AD). Ibn Battuta, The Man and the Journey, .), Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1st edition.

Al-Balansi (Abu Al-Hussein Muhammad bin Ahmed bin Jubair Al-Kinani Al-Andalusi). (d.t.). The Journey of Ibn Jubayr, its compilation and indexing: Dr. Muhammad Zainhum Muhammad Azab,. Cairo: Dar Al-Maaref.

Hassan (Zaki Muhammad. (2013). Muslim Travelers in the Middle Ages. Cairo: Hindawi Foundation for Education and Culture.

Dr.. Shoaib is my ally. (2006). The Journey in Arabic Literature. Cairo, 1st edition: Vision for Publishing and Distribution.

Abdullah Al-Rukaibi has a model, Nasser Baraka,. (December, 2015). The aesthetic use of place in travel literature: In “The City of Fog and Other Cities.” Journal of Studies and Research, Volume 7, Issue 12, Zian Achour University of Djelfa, Algeria.